متغيرات المكان في السرد الروائي العراقي
١٩٩٠م-٢٠١٠م

أ.م.د . عبد الله حبيب كاظم
كلية التربية /جامعة القادسية

م. رواء نعاس محمد
كلية الاداب/ جامعة القادسية

المقدمة

يجسد المكان في السرد الروائي مشهداً من العالم الخارجي في لوحة مرسومة بالكلمات، وللروائي سبل شتى في تشييده، منها الوصف واستخدام الصورة الفنية وتوظيف الرموز الى غيرها من السبل، ولكل منها دوره الفعال في تنظيم الاحداث وتأطير المادة الحكائية داخل النص السردي.

يحاول البحث ان يرصد المتغيرات المكانية في السرد الروائي العراقي في مرحلة فاصلة من تاريخ الرواية العراقية الحديثة، اي في العقد الاخير من القرن العشرين والعقد الاول من القرن الواحد والعشرين. فلم يعد المكان في الرواية محض مكان هندسي او مجرد خلفية تتحرك امامها الشخصيات او تقع فيها الحوادث، بل اصبح شبكة من الرؤيات ووجهات النظر في ضابط من الايقاع المنظم يجمع الامكنة بالشخصيات والحوادث معا .

وصار بالامكان تصيد الانتقالات الدلالية للمكان في السرد العراقي، وفاقا لتلك التطورات الرؤيوية او زوايا النظر الى العالم، التي حددت طبيعة العلاقة التي تربط الانسان بالمكان. وانسجاما مع هذا الطرح، كانت خطوات هذا البحث. الذي رصد ظاهرة انتشار الصورة العدائية للمكان في المحور الاول ، وانتقل الى ظاهرة انتشار الصورة الطوباوية للمكان في المحور الثاني.ممهدا لذلك بمدخل تنظيري يعزز حدوث التغيير .

مدخل ..

يعد المكان أحد مكونات البنية الحكائية للرواية ، بما يحمله من ابعاد سياسية وتاريخية واجتماعية نفسية في خلق المعنى والدلالة . كما يدخل في ((علاقات متعددة مع المكونات الحكائية الاخرى للسرد، كالشخصيات والاحداث والرؤيات السردية ، وعدم النظر اليه ضمن هذه العلاقات والصلات التي يقيمها، يجعل من العسير فهم الدور النصّي الذي ينهض به الفضاء الروائي داخل السرد))(١)

وتزداد اهميّة المكان بمدى قدرة الروائي على خلقه وتصويره والتعبير عنهُ أو بهِ ، وصياغته بصورة جديدة تؤكد دوره الفعّال ووجوده الكمي ((ولا يعني تصوير المكان الخارجي وانما المكان الروائي لاثارة خيال المتلقي))[٢] إذ أن ((سطوة المكان تتعدى في الواقع ما يبدو على السطح من تأثيرات، وفاعليتها المباشرة الى أعماق التكوين النفسي للشخصيات))[٣] بحيث يصبح من الممكن عّد المكان ((كياناً إجتماعياً يحتوي على خلاصة التفاعل بين الإنسان ومجتمعه ، لذا شأنه شأن أي نتاج اجتماعي آخر ، يحمل جزءاً من اخلاق وأفكار ووعي ساكنيه،ومن خلال الاماكن نستطيع قراءة سيكولوجية ساكنيه وطريقة حياتهم وكيفية تعاملهم مع الطبيعة))[٤] .

والمتأمل في الرواية العراقية يجد انها وقفت –شأنها شأن الرواية العالمية والعربية – أمام المكان طويلاً ، تحاول أن تكشف عمق العلاقة التي تربط الإنسان بمحيطه الذي يأخذ أشكالاً مختلفة .

فتناول السرد العراقي أماكن متعددة ،منها الريف والمدينة (بكل تفريعاتهما المكانية) مثل البيت وإجزاءه والشارع واجزاءه الى غيرها من التفريعات. فحظي الريف العراقي بما فيه من مشكلات اجتماعية وعادات وتقاليد بأهتمام كبير في الرواية العراقية .[٥]

كما صّورت الرواية العراقية وجه المدينة التي مثّلت حياة المجتمع البغدادي في مرحلة من مراحلها الفنية، معتمدة على المكان في التعبير عن حالة البؤس والحزن داخل المجتمع في تلك المرحلة .[٦] كما رسمت الرواية ملامح البيت البغدادي، الذي اصبح فيه البيت رمزاً للوطن .[٧] وامتازت علاقة الإنسان بمكانه فيه بالحميمية، دون ان نشهد انهياراً لمفاهيم المكان التقليدية أو نفساً عدائياً مكانياً .[٨] الا ان هذه المفردات المكانية كانت مهتمة بمعالجة الواقع بصورة واقعية ومؤثرة، فكان تركيزها على المكان الذي يعبّر عن واقع الشخصية، الذي لا يتجاوز الواقع الملتصق به والدال عليه .

لكن ما مرّ به المكان العراقي من نزاعات وغياب حريّات بين الفرد والسلطة أدّى الى انهيار صورة المكان الأول، اذ لم ينبثق الخراب المكاني على نحو فجائي في نيسان من عام ٢٠٠٣ بل عاش إنساننا العراقي مراحل من التدمير النفسي والمكاني –وصولاً الى هذا التاريخ–.

لقد شهدت الشخصية العراقية دمارا مكانيا في مرحلة الثمانينيات، حيث ازالت الحرب ما لا يناسبها من مخططات المدن ومن سبل الحياة ،فضلا عن الانهيار المكاني التسعيني الذي جسّد الفصام الحقيقي بين الانسان والدولة ، لاسيما بعد ان ترجمت السلطة كل شيء لصالحها: الشوارع والنصب والمنتزهات والمدارس والمعامل و الجامعات. ((حتى اصبح الوطن ممراً ضيّقاً لا يؤدّي الاّ للسلطة ومواسم انتصاراتها . واصبح الانسان تفصيلاً صغيراً مهملاً في لوحة إدعاءاتها))[٩] فكان ان شهد الانسان العراقي مرحلة الانسحاب التدريجي من المكان، مسجلا اعتراضا صامتا على السلطة ،محاولة

منه تأكيد حضوره الذاتي. فكان عقد التسعينيات ، بما تشّبع به من مواجع ، تمريناً في انفصال الإنسان عن ذاته، واغترابه عن مكانه. فبرزت ظواهر مثل محاولة غياب الملكيّة العامة و التجاوز على الارصفة العامة ، وكانت خير دليل على إفراغ الوطن من محتواه ، وبداية مرحلة العدائية بين الفرد والمكان . حيث بدأ الفرد العراقي يعتدي على مكانه . وهو ما يفسّر الهجمة البربرية لبعض الذوات المستلبة على وطنها تمزّقه وتعتدي على اماكنه العامة ، تهدم ما شاءت من الاسيجة وتقطع ما تشاء من الاشجار وتقيم بدلاً عنها ما شاءت من الأكشاك والمخازن والمنازل والغرف المفردة .[١٠] ((فليس ثمة روادع من قيمة فاصلة بين ما هو لي أو ما هو لنا))[١١] .

ان هذا التحوّل الواضح في علاقة الشخصية بالمكان راجعٌ بالدرجة الأولى ، الى استبداد الدولة في تحويل الجامعات الى مقرات عسكرية ، وتحويل الشوارع الى ثكنات عسكرية ونقاط تفتيش أو حراسة ، فقد عمل النظام السابق على ((عسكرة المكان ، وتحويله الى وحدة قيادة عسكرية لصالح الفيالق))[١٢] .

وكان من اثار الهدم والتخريب المباشر للمكان، تبدّل علاقة الفرد وارتباطه بمكانه وظهور صورة من صور(العدائية) التي تعد متغيرا ملموسا بالرؤية، وتحولا صارخا بزاوية النظر نتيجة تحول الأليف والحميم الى مكان معادٍ .

وقد رصد السرد العراقي الجديد هذا التحول التدريجي لصورة المكان العراقي في روايات متعددّة، وصار بالامكان أن نعدّ هذا التحوّل متغيرّاً واضحاً على صعيد الواقع والفن الروائي .

المحور الاول:

(التخريب المكاني)

ان انكسار الالفة وزوال الاحساس بالمكان فضلا عن الاحتفاء بالفردانية ،اسهم بوضوح في تشكيل البنية المعمارية الجديدة للمدينة حتى تجسدت في شوارع رثة ومزدحمة ، وبيوت بملامح فردية اذ ((يحاول البيت الان النفاذ الى ذاكرة المدينة بوصفه مكونا مهيمنا في السياق الحضاري....يلاحظ احتفاء هذه البيوت بالعمود ، عنصرا معماريا شاع حضوره في واجهاتها .. يتطاول متعاليا ويعالج سطحه الخارجي باساليب زخرفية .. الباب في البيوت هو الاخر متعاليا ومزخرفا بنقوش خشبية))[١٣] بحيث لا تنسجم مع مشهد الشارع او الزقاق كما هو حال البيت التقليدي .فضلا عن الشرفات التي شكلت مفاصل مكانية تعمل على تكريس فكرة الانفتاح نحو الخارج وانغلاق الداخل بابواب متعالية ، على الضد من البيت التقليدي المنفتح نحو الداخل بفناءات مفتوحة .

حيث اولى الكاتب العراقي اهتمامه الكلي بتوثيق المدينة ، وهو نمط كتابي جديد يمنح السرد مساحة من الحرية تمتد من المكان الى الزمان .التي استثمرت كاشتغال فني ينزع نحو رصد اهم التحولات التي عرفتها بنيات المدينة التي ما فتئت تتجدد باستمرار.

رواية (عطر التفاح / ارادة الجبوري)

يمكن للمشاهدات التي التقطتها عينا الرائي والمتناثرة في المحكي المركزي للنص ان تؤلف في مجموعها الخراب المكاني، وكأنه جمع من اشياء مختلفة حيث تشهد الرواية صورة واضحة لأنهيار المدينة في المدة التي غطتها الرواية وهي حرب الخليج عام ١٩٩١م. .((يسير أدهم في طريق يمد قدميه ببطء متوجهاً نحو الساحة الكبيرة ، الزحام هنا شديد عادةً ، حديقة مهملة على يساره، التمثال الابيض في منتصفها لأمرأة وطفلها يكاد يضيع بين أكداس المهملات، رائحة نتنة تتصاعد من المكان ممتزجة برائحة رطوبة الارض))[١٤] اغلب الاماكن تتحول بفعل الحرب الى اماكن موحشة تثير الرعب في النفوس.

وفي صورة أخرى ، ترّكز الرواية على شارع أبي نؤاس الذي ظلّ شاهداً على آثار التدمير الذي شمل كل نواحي الحياة المحيطة به ، بعد تدمير جسرا الجمهورية والمعلق : ((نظرتُ الى امتداد الشارع ، وتذّكرت بحزن طاغ ، الحانات والنوادي ، والمقاهي ، حين كان شارع ابي نؤاس ، يحتفل بأيام الاسبوع جميعاً ، يحتفل بنفسه ،بأشجاره بأطلالته على دجلة ، بالبغداديين الذين يقصدونه الأيام جميعاً. الشارع مترعٌ بالحزن، وأي حزن أكبر من ان يفجرّ في الشارع نفسه جسران الجمهورية والمعلق . ابو نؤاس يحملُ الجمهورية عند التقائه بالرشيد ويسيل بهدوءٍ عذبٍ تحت المعلق))[١٥]

لقد تغيرّت دلالة المكان المعهودة ، وأصبحت رمزاً لمعاناة الإنسان بسبب الحصار والدمار والحروب ، فتحولت دلالة ابي نؤاس من مكان يلتجأ اليه الناس لنيل الراحة الى مكان يعجُّ بالجثث والضحايا.

رواية برج المطر / امجد توفيق

هيمنت الرؤية الكابوسية على مجمل بنية الرواية ، بعد ما كانت مقتصرة على الشخصية فقط صار الوجود بحد ذاته ذو طبيعة كابوسية .

وكل التفصيلات المكانية التي صيغت في بنية السرد الواقعي كانت تنحو منحى تجسيد الرعب والدمار:((تألمتُ وأنا أرى سيارات الأجرة تحمل نفوس أطفال في شارع ابي نؤاس، وقفت محدّقـــــــــة بوجوه الجالسين في السيارات لأكتشاف من هي الأم أو الأخت أو الأب))[١٦] يلاحظ ان سمة الحزن كانت طاغية في الرواية لانها ركزت على حالة الانهيار التدريجي للمدينة ((ذهب

ادوارد سعيد الى ان مسحة الكآبة ومظاهر ثقل الحياة في المدن العربية بعامة يعود في جزء اساسي منه الى قوة حضور السلطات الاستبدادية فيها))[١٧] اذ ان سطوة المكان تتعدى في الواقع الى اعماق التكوين النفسي للشخصيات.

رواية خسوف برهان الكتبي/ لطفية الدليمي

رصدت الرواية الخراب المكاني لشارع المتنبي وشارع الرشيد، فما تسرده عن (برهان) بطل الرواية، وهو يتطلع الى المسيرة التي كانت تجوب شارع الرشيد وهي تحمل توابيت الاطفال الذين ماتوا أثر الحصار كفيل برسم صورة انهيار الامكنة التي تظهر بصورة جلية للعيان عدوانية الفضاء المكاني : ((في لحظة الذهول التالية يسير برهان في الشارع ولا يعرف قط انه في شارع الرشيد ، تجرفه في اللحظة التالية حشود النساء، نادبات يحملن صور اطفال مكللة بأطواق الزهور .. ويتتبعهن سيارات محملة بتوابيت عليها صور أخرى لأطفال بددتهم اللوكيميا وأهلكتهم مطحنة الجوع))[١٨]

ونجد ما يماثل هذه الصورة للمكان في رواية سابع أيام الخلق ،فقد رصدت هي الأخرى حالات الخراب المكاني الذي بدا وكأنه مرتبط بالموت وانعدام الحياة : ((هام على وجهه طويلاً في أزّقة البلدة الضَيقة متعثراً بالجثث التي تتصاعد منها روائح عفونة رهيبة – وتحوّل مع المصابين بالداء المميت على غير هدى مشاركاً اياهم في صراخهم بكلمات عجم))[١٩] ان الوضع المكاني هنا،تحول الى مكون روائي جوهري احدث قطيعة مع مفهومه كديكور. نتيجة ارتباط المكان بعسكرة المفاهيم التي حولت (الوطن –المدينة – البيت) الى مفاهيم (الموت – الدم – القتال) .

رواية الخائف والمخيف / زهير الجزائري

لقد اصبح المكان عدو الذات الاول – بعد ان سلب من الناس دلالة الامكنة المرتبطة بالألفة والمحبة (كالبيت، والشارع ، والمدرسة ، والوطن)،واستبدلها بمفاهيم مرتبطة بـــ(البؤس ، والحزن ، والانين) اصبح الهرب والانهزام من (البيت –الشارع –المدينة –الوطن)هو الخلاص.نتيجة التحولات الدلالية لفضاءاتها ، فاصبح ((البيت مناحة حقيقية)) [٢٠] الشوارع ((مكتظة بهدير الحشد الذي يودّع الجنود الى الجبهات))[٢١] ((وملابس المدرسة استبدلت بـــ(بدلة عسكرية) مبقعة مترهلة على جسد نحيل ورأس حليق يشبه جمجمة ميت))[٢٢] أما القرى ((فلم تكن سوى قرى مهجورة توقفت مداخنها ولم يبق من ساكنيها غير شيوخ جاوروا قبورهم وكلاب مقطوعة الارجل))[٢٣] ،((فمنذ الصباح الباكر ينخرط الشعب كله في طوابير تركض في الشوارع، بينما مكبّرات الصوت المبثوثة في كل مكان تهدر بأناشيد الحرب : مرحبا ، مرحبا ، يا معارك المصير:))[٢٤] تغيرت ملامح المدينة ولا شيء يدل عليها : ((فقد شقّها شارعٌ عريض تتيره كاشفات حادّة من ابراج تمتد على جانبيه)) ([٢٥]) ((ما من مدينة في الافق ، قالها

وهو يتطلع من وراء الحاضر فلا يرى غير الصحراء ذاتها متتالية لانهائيه ... لم يجد المقهى ولا النهر الذي يهدر تحت شرفته ، والشلة التي جاء يقرأ قصيدته امامها جلست في العراء))([٢٦])((ولكما طالت المسافة تركزت فكرة ان المدينة التي ينشدها تاهت أو انها لم تعد موجودة وقد اكلها الحريق))([٢٧].

اما الوطن فقد تحولت فراشاته الى قذائف ((فراشات قاتلة باحثة عن اجسادهم فتلتصق الرؤوس بجدران الخنادق))[٢٨] ارتبط بمفردات الموت – القتل – الدماء– وحين يتحول الوطن الى غول يلتهم ابناءه حين ذاك يصبح العدو الوحيد .

رواية الحرب في حي الطرب / نجم والي

رصدت حالة الموت الحقيقي في ساحة المعركة وبينت صورة الجبهة و قد ارتبطت بالجثث والموت والدماء ((كنّا نمر فقط بجثث ووحدات عسكرية ولكن ثق كل مرّة – كنّا نمّر بجثث – بجثث ذاتها اعتقد ان الجثث لا ترفع من اماكنها وتبقى تتعفن والى فترات طويلة))[٢٩]

ان توقف الانسان عن الحركة واحتقاره حتى بعد مماته ينشأ لدينا شعوراً بقسوة المكان ومحاولة الافلات من قبضته: ((اصطحب كتبه معه الى المعسكر ، وظل يقرأ في واجبات الحراسة ، وفي كل فراغ يسنح له ، فعلى الاقل سيحذف نجاحه ونيله شهادة الاعدادية سنة كاملة من خدمته العسكرية))[٣٠]

ان الصورة النمطية عن الحرب في ساحاتها الملعونة، انها بؤرة لكل الشرور التي تتجاوز كل الصور الانسانية ترتبط بصورة المكان العدائي الموحش الذي تتكوم على ارضيته الجثث والاشلاء وتسيل فيه الدماء .ان تكثيف الصور المتعفنة للمكان تصل بالقارئ الى عمق الصور الكابوسية لساحة المعركة وهي تجلّي آخر للغطرسة والبطش والعنف المطلق .التي حاولت الرواية توثيقه من خلال توثيق المكان السلطوي وتعريته في زمن قادسية صدام .

تمزّق الرواية مفهوم الجبهة في ادب قادسية صدام عن ذلك المكان المتوغل في رسم صورة النصر . فتكشف عن مكان بعيد عن عيون السلطة ودورها الرقابي .

كما ان هناك روايات قد رصدت المكان المخاتل الذي يبحث عن الثقوب والزوايا المعتمة من اجل الاختباء بها بعيداً عن اضواء السلطة وعيونها المراقبة ، كما رصدت بعض الروايات دهشة المكان او صدمة المكان بعد رصد ملامح التغير التي انتابته فانبعثت كتابات عن ذاكرة المكان تستنطقه، لحاجة الانسان العراقي الى فلسفة أخرى وأحساس آخر، يسلط الضوء على حياة المدينة المرئية التي تضعه سجيناً بين جدرانها .

المحور الثاني :

(المكان الطوباوي)

حاول الروائي العراقي البحث عن بديل يعوّضه عن انهيار مكانه الاول، فألتجأ الى الارتقاء بالمكان الى حيث الخيال .وتبنى افكاراً تقع في ((لامكان)) او ما يعرف بـ((الطوباوية))[٣١]. وهذا لا يعني ان اللامكان مجرد هرب من المكان ((بل محاولة يبذلها الوعي للرقي بالمكان الى ما يشتهي الانسان ان يؤول اليه))[٣٢]، حيث سعى الكتاب الى تفكيك بنية المكان من حيث دلالاتها الواقعية المباشرة ، وذلك بفعل الإحساس بنسبية المكان او ميل بعضهم الى تحقيق (اللاجغرافية) او الهجنة في وصف المكان ، لتعديل النظرة الى طبيعة المكان . لذا ركن هؤلاء الكتاب الى اختيار مدن افتراضية او متخيلة لا تمت للواقع بصلة ولكي يستطيع التخييل تنظيم المكان المتخّيل غير القابل للتحققّ على الصعيد المادي، فأنه يستعير من المكان المعيش مبادئ التنظيم. فالتجأ اليه الكتاب و ((وضعوا فيه تصوراتهم حول المدينة المثالية وحوّلوها الى مطالبات اجتماعية))[٣٣] ساعدت في نضجها الظروف الموضوعية القاسية، كالحرب، والقهر السياسي، والمنفى .. وغيرها مما اسهم في دخول المدينة لعبة التفكيك الروائي

كما ان استعارة المكان البديل تأتي (من بعد حدوث نوع من الخراب على بنية المدن ، سواء كان خراباً مادياً او رمزياً ، معنوياً او اخلاقياً ، يدفع الى نمط من الخلاص كسلوك استبدال للمكان وهو سلوك يندرج ضمن البحث عن سفر – بكسر السين – وملاذ آمن يعيد للاشياء تماسكها ، وللمفقود استرداده وللمتشظي اصوله)[٣٤]، لاسيما ان الطوباوية الحديثة لم تعد تركز على المكان المتخيل لمجرد الوصف ، بل على تبني مشروع اجتماعي ، يحاول احداث تغيرات مرحلية في المجتمع عبر الزمن [٣٥] .ولعل هذا التوجه في تحقيق هكذا نوع من الأمكنة ، يحرر المخيلة الإبداعية في الوقت الذي يستدعي من القارئ جهدا مضاعفا وقدرة واعية في تلقي النص وتأويله. لانه قد لا يرتكز على حدود الواقع بل يتعداه الى عالم وهمي مرتبط بتصورات غير واقعية لها صلة بعالم رؤيوي ترسمه تخيلات الفنتازيا المكانية .

رواية خسوف برهان الكتبي / لطفية الدليمي

بعد ان استحضرت الكاتبة، شارع الرشيد وهو يعج بتوابيت الاطفال الذين ماتوا أثر الحصار تحاول هنا، ان تؤسس لمكان آخر أكثر أماناً يكون ملجأ للخائفين، فتبدأ بتشكيل مكان استبدالي ومدينة طوباوية تراءت لبرهان ، بطل الرواية : ((دخل معهم سار في ممرات طويلة والى يساره امتدّ رواق بأعمدة نحيلة تتسلقها الورود واللبلاب البري، البناية نوع هجين من المباني، لا هي بمسجد ولا هي

مقبرة أو ضريح لولي او شيخ تقي، لها قباب مكسوة بالكيشاني ولكن ليس من منائر، لا بالمبنى السكني ولا هي مستشفى او مدرسة، يمر تحت اقواس بمقربضات عباسية وفسيفساء اندلسي، وهو لا يميزّ بين هذا وذاك، اسيجة زهور الاقحوان والداليا والورد ، يعبر برهان ما يشبه ممر المرايا ، يسير بين الاشجار وينظر الى الاشخاص المتحركين في ضوء الشمس فلا يميز الملامح في انعكاسات المرايا ..))[٣٦]. فثمة شك بخصوص المكان الذي ينتمي اليه (برهان) اهو هذا العالم ام عالم مغاير تماما تركته التخيلات الفنتازية ينصب في انفصال صورة المكان عن المألوف الذي يمكن ان يتخذ اشكالا غريبة منذرة بالخطر فيصبح الإحساس بالطمأنينة محض وهم .

وهنا يظهر الدور الذي لعبته الظروف القاسية التي مرّ بها العراق في مرحلة التسعينيات من قتل ودمار وحصار اقتصادي في خلق مكان متخيلٍ لجأ اليه الفرد العراقي، كي يشكل مكانا بديلا، يعوض مكانه الاول وما لحقه من خراب بنيوي .

رواية المنعطف / حنون مجيد.

في رواية (المنعطف)[٣٧] ، نجد ان البحث يرتكز حول الوصول الى مدينة –سرمارا– وهي مدينة افتراضية نتجت بفعل رفض المدينة النشأة – بفعل الحرب وما عمّها من خراب– الى مدينة مؤملة فيها دارة العلم والشفاء، ونقاء الماء والهواء ،وهي حلم بـــــ (الارض التي لم تطأها قدما انسان)( )، اقرب الى الامنيات منها الى الامل تحقق فيها الفنتازيا إمكانية إيجاد حلول لأقسى الهزائم والمخاوف عبر مغامرة اجتياز الصحراء. حيث يؤكد جهاد مجيد على ان مدينته المتخيلة ذات صفات جامعة ومثالية ، يحلم شخوصها بأسترداد قيمها الذاتية بعد ان باتت المدينة الواقعية خرابا .اذ يهيئ المكان البديل موقعا ممتازا نستطيع ان نطل من خلاله على الثغرات التي تملئ عالمنا

رواية حكايات دومة الجندل/ جهاد مجيد

تؤكد رواية ((حكايات دومة الجندل)) على وجود مدينة افتراضية تمتلك مواصفات المدينة المثالية فتظهر طوباوية المكان عالية على لسان الجد الذي زار تلك المدينة، اذ ان الجد ((سها مرّة فحدثّهم حديث ((دومة الجندل)) مدينة قال لهم عنها ، تقع بعد حدود السراب))[٣٨] وبحث عنها الحفيد فلم يجدها .((حقّا .. لم اجد مدينته كما وصف –بل لم اجد مدينته))[٣٩].فجاءت الفنتازيا قريبة من الذاكرة المتعالية التي تبتدع صورا يستحيل إيجاد مثيل لها في الواقع من حيث التجسيد والمواصفات على الرغم من انطلاقه من الواقعي نحو المتخيل لتأكيد المفارقة وإظهار التناقض.

رواية الضالان / محمود سعيد

ان الكاتب في روايته ((الضالان))[٤٠] قد استبدل الغابة الموحشة ذات الرهبّة المسكونة بالمجهول، بعالم متخيل لا وجود له الاّ في احلامه ، اذ يحاذيه على ارض الواقع عالم المدينة التي تفترس ابنائها دونما رحمة .

فالغابة اذن، عالمٌ مجازي اخترعه خيال الكاتب، ليدفن فيه اوجاعه وهزائمه واحباطاته، بعد خيبته في الوصول الى مدينة تحتضنه ، بعد هربه من جحيم المدينة – الوطن – ليجد نفسه في جحيم المدينة الماديّة "شيكاغوا". فاستعاض عن المدينة بـــــ (الغابة) التي وفرّت له الملاذ الذي يبحث عنه ((اذ لا يبتعد المنفى ان يكون غريباً ومخربّاً ومفتقراً الى الانتماء ، لانه طارئ ويضمر قوة طاردة في العلاقات القائمة فيه))[٤١] .فثمة نص هنا يختلط فيه فنية الرواية بالمحتوى الذي يقترب بها من السيرة اذ يحيل الى مرجع هو نسيج من وقائع حقيقية تتعلق بحياة الكاتب الشخصية .

رواية الاعزل / حمزة حسن

وكذا نجد في (رواية الاعزل)[٤٢]الذي اتخذ من (ربيضة) مكاناً حلمًياً، وهي شبه جزيرة في قلب دجلة تبزغ في ذاكرة الاعزل كلما صدمه مكانٌ جديد :((كلما خمشَ عصفورٌ وجه نافذتي ، تذكرت ربيضة))[٤٣] ، بعد ان مثلت (البارات والفنادق ، والسجن ، وخنادق الحرب، وسجون المنفى) مكاناً معادياً ونقيضاً لـــ (ربيضة) – البراءة –، فهي استعادة حلمية كعالم الطفولة المقصي بعد ان اقصى الواقع، الاعزل الى حدود الحلم والهذيان وأخرجه من بوتقة زمانه .

وما نلحظه هنا – ان قضية تخيّل الاوطان والامكنة الاولى، تعد البؤرة المركزية لأدب المنفى، اذ ((دفع الحنين الى المكان الاول رغبة عارمة لأستدعاء الذكريات الممزوجة بالتخيلات بحثاً عن توازن غائب ، فيحكم سيطرته على المكان المفقود ، في سعي للعثور على معنى لحياته)) [٤٤]

يتضح مما سبق عرضه ، ان الامكنة في الرواية العراقية قد طرأ عليها متغيرات في التوظيف الدلالي، ناتج من تغيّر الرؤى والمفهوم بالنسبة للانسان العراقي الذي بات لا يجد في المكان الاّ عدواً، وبيئة طاردة لافرادها، تدفعهم للبحث عن بديل يعوّض الخراب البنيوي الكبير الذي اسسته عوامل الحرب، والقهر، والحقب السياسية، فضلاً عن ظروف الحصار والقمع والتهجير ، كان المتغير المكاني مستجيباً لمرجعيات الواقع العراقي المصبوغ بسمات قهرية واستبدادية قادت الى تشكلات رؤيوية دات طبيعة كابوسية، بانت بشكل واضح في البنية المكانية السردية في الرواية .

نتائج البحث

من اهم المتغيرات السردية المتعددة التي ظهرت على ساحة السرد الروائي ضمن المدة الزمنية الواقعة من ١٩٩٠ــ ٢٠١٠ المتغير المكاني، ويعد أحد مكونات البينة الحكائية للرواية ، بما يحمله من ابعاد سياسية وتاريخية واجتماعية نفسية في خلق المعنى والدلالة.

وقفت الرواية العراقية شأنها شأن الرواية العالمية والعربية ، أمام المكان طويلاً ، تحاول أن تكشف عمق العلاقة التي تربط الإنسان بمحيطه الذي يأخذ أشكالاً مختلفة .

تناول السرد العراقي أماكن متعددة ، منها الريف والمدينة بكل تفريعاتها المكانية ، الاّ أن ما مرّ به المكان العراقي من نزاعات وغياب حريّات بين الفرد والسلطة أدّى الى أنهيار صورة المكان الأول.

شهد الإنسان العراقي مرحلة الانسحاب التدريجي من المكان مسُجّلاً اعتراضاً صامتاً على السلطة ، محاولا تأكيد حضوره الذاتي . لذا كان عقد التسعينات ، بما تشّبع به من مواجع ، تمريناً في انفصال الإنسان عن ذاته واغترابه عن مكانه، وبداية مرحلة العدائية بين الفرد والمكان، وبدأ الفرد العراقي يعتدي على مكانه وظهر تحوّل واضح في علاقة الشخصية بالمكان راجعٌ بالدرجة الأولى، الى استبداد الدولة.

مما خلق نوعاً من (العدائية) فتحوّل المكان الأليف والحميم الى مكان معادٍ .

رصد السرد العراقي الجديد هذا التحول التدريجي لصورة المكان العراقي في روايات متعددّة ، اذ صار بالامكان أن نعدّ هذا التحوّل متغيرّاً واضحاً على صعيد الواقع والفن الروائي .

حاول الروائي العراقي البحث عن بديل يعوّضه عن انهيار مكانه الاول ، فألتجأ الى الارتقاء بالمكان الى حيث الخيال فخلق مكاناً يوتوبياً متخيلا يعوض مكانه الاول وما لحقه من خراب بنيوي اسسته عوامل الحرب والقهر والحقب السياسية فضلاً عن ظروف الحصار والقمع والتهجير .

وبذلك يكون تغيير الرؤى واعادة صياغة المكان في السرد العراقي ناتج من مرجعيات المكون الواقعي العراقي وتأثيراته السلبية على الذات .

الهوامش

(١) بنية الشكل الروائي "الفضاء،الزمن ،الشخصية"/ ٢٦.
(٢) بنية النص السردي / ٥٧
(٣) الحداثة والتجسيد المكاني ١٧٢.
(٤) الرواية والمكان / ج٢/ ص١٦. وينظر ايضاً : عالم الرواية /٩٥.
(٥) ينظر: رواية جلال خالد / ١٩٤٨ .
(٦) ينظر: رواية النخلة والجيران .
(٧) ينظر: رواية الرجع البعيد .
(٨) ينظر: مكابدات عبد الله العاشق ،. التي ربطت بين طبيعة عبد الخالق الإنسان وارضه. وينظر ايضاً : رواية (حدود النار) ، التي جعلت (الغربة) رمزاً لكل الامكنة في العراق .

(٩) المكان العراقي، جدل الكتابة والتجربة / ٢٨.

(١٠) ينظر : م.ن/٣٠ وما بعدها .
(١١) م.ن : ٣٦
١٢ الخائف والمخيف /١٠٧
١٣ المكان العراقي / ٩١-٩٢
(١٤) عطر التفاح/ ٢٦.
(١٥) م.ن / ٢٠-١٢.
(١٦) برج المطر / ١٥٣-١٥٤.
١٧ مقاربات حوارية / ط١ ،٢٠١٢ /١٢٣
(١٨) خسوف برهان لكتبي / ٦٢-٦٤.
(١٩) سابع أيام الخلق / ٩٦.
(٢٠) الخائف والمخيف/ ١٤٩.
(٢١) م.ن/ ١٤٧.
(٢٢) م.ن/ ص.ن.
(٢٣) م.ن / ١٦٣
(٢٤) م.ن / ١٤٥.
٢٥ م.ن/٢٠٣
٢٦ م.ن/ ٢٠٥
٢٧ م.ن/ ص.ن

(٢٨) م.ن/ ١٦٣.

(٢٩) الحرب في حي الطرب / ٦٥.

(٣٠)م.ن / ٦٧ .

(٣١) وهي عبارة توكاس مور وتتكون من (ou) التي تعني (لا) و(poposi) وتعني (مكان) ، ينظر: عوالم تتخييلة ، قراءات موضوعية في السرد/ ٢٣ .

(٣٢) م.ن/ ٢٤ .

(٣٣) م.ن/ ص. ن.

(٣٤) السرد والذاكرة .. قراءات في الرواية العراقية ، ج١ ، بتاريخ ٢٠-٨-٢٠١٠م ،موقع www.shehrayar.com .

(٣٥) ينظر : عوالم تتخييلة / ٢٤ .

(٣٦) خسوف برهان لكتبي / ١١٨ ، ١١٩ .

(٣٧) ينظر : المنعطف /

(٣٨) حكايات دومة الجندل/ ٩ – ١٠ .

(٣٩) م.ن / ص ٥٩ .

(٤٠) الضالان

(٤١) ينظر : الرواية العراقية الجديدة المنفى – الهوية –اليوتوبيا

(٤٢) الاعزل

٤٣ م.ن/ ١٥٤

(٤٤) ينظر : المنفى ،الهوية ، اليوتوبيا .